إبراهيم دون تأمل في مغزى الآية! وتهريج موقف القرآن أهرج وأحرج من تهريج إبراهيم القرآن! ثم الوالد أخص من الأب، فإنه يعمه والجد للأم، والعم، والوالد يخص من ولّدك، فقد كان - إذاً - والده غير أبيه، صيانة للعصمة الإبراهيمية وأحرى منها العصمة الإلهية عن صراح الكذب: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ فلم يستغفر له بعد، أفبعد ذلك بردح كبير من الزمن يستغفر له؟.

ولماذا يطلب الغفر - فقط - يوم يقوم الحساب، وموقفه الأحرى قبل يوم الحساب، يوم الدنيا أم في البرزخ؟ علّه لأنه أحرج المواقف وأحوجها إلى الغفر، ثم وقد يغفر يوم الدنيا ثم يرجع المغفور له مذنباً، أم يغفر في البرزخ مؤقتاً، لأنه ليس موقف العذاب الفصل، ثم يعذب يوم الحساب أم يغفر له، إذا فهامة الغفر وعامته هي ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

أم إن «يَوْمِ الْحِسابِ» يشمل يومي البرزخ والمعاد مهما اختلف حساب عن حساب.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾:

قد يحسب الجاهل بالله وبيوم الله أن الله غافل عما يعمل الظالمون حيث لا يجازيهم يوم الدنيا، وليس الخطاب هنا لخصوص الرسول ﷺ بل

لعامة المكلفين على الأبدال، من بالإمكان أن يتطرق إلى خلده ذلك الحسبان، فهو بالنسبة للرسول ﷺ ومن حذى حذوه تأكيد على سلبية الحسبان الكائنة فيهم، ولأن الغفلة هي التجاهل والتساهي بعد العلم والقدرة، فسلبها اثبات لهما كما يثبت حضور العلم والقدرة، فالنص ﴿غَٰفِلًا﴾ وليس «عاجزاً» أو «جاهلاً» أم «ظالماً» على علم وقدرة، وإنما ﴿غَٰفِلًا﴾ كأقل ما قد يحسبه الجاهلون بجنب الله، إنه على علمه وقدرته وعدله ورحمته، كأنه غافل عما يعمل الظالمون! وذلك عجز في القدرة، ونقص في الحيطة العلمية.

وترك مجازات الظالمين هنا - على قدرته تعالى وعلمه وعدله ورحمته وعدم غفلته - هو من الادلة القاطعة على ان هناك بعد الدنيا يوماً للجزاء ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ في مواصفات حاذرة لذلك اليوم، هي تعزية للمظلوم ووعيد للظالم.

وشخوص الأبصار هو سكونها من شديد الهول، محدقة إليه دون حراك، وناظرة نظر المغشي عليه من الموت، تراه ميتاً وما هو بميت، وهذه حالة الظالمين يوم الحساب.

﴿مُهۡطِعِينَ﴾: مصوّبين أعناقهم ورافعين ﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ ورافعيها ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ لهول الموقف، فهم في ثالوث الشخوص، أبصارهم بطرفها والرؤوس ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ هاوية خاوية كأن لا أفئدة لهم إلّا هباء.

فالأفئدة الهواء هي الخالية من عزائم الصبر والجلد، لعظيم الإشفاق والوجل، فقد يسمى الجبان يراعة جوفاء، كأن ليس بين جوانحه فؤاد، حيث القلب هو محل الشجاعة، وإذ لا شجاعة فلا قلب ولماذا هنا «الأفئدة» دون «القلوب»؟ لأن الفؤاد هو القلب المتفئد إما بنور الهدى المعرفة حيث تنير الدرب على الضالة كفؤاد الرسول ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ

مَا رَأَىٰ﴾[١] أم بنار الردى والجهالة حيث تحرق من تمسه: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾[٢].

فأفئدتهم هذه، المتسعرة بسعير المظلمات، سوف تخمد حين يرون العذاب، وتهوى هباء كأنها تخرج منهم فهم ميتون.

فالسرعة المهرولة المدفوعة، في الهيئة الشاخصة المشدودة، مع القلب الفارغ الهواء، الخواء الهارع، الفارغ من كل وعي وتصميم، وكل ذلك تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار، وهذه مسيرة ومصيرة الظالمين، انتصاراً للمظلومين، إلّا من ساعدوهم في ظلمهم، وساندوهم في تطاولهم على سائر المستضعفين، فإنهم - أيضاً - في عداد الظالمين مهما كانوا في عديد المظلومين ولا يظلمون فتيلاً.

وهنا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقط دون «الكافرون» لأن الظلم هو انحس كفر وأتعسه.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾:

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كبداية هو يوم عذاب الاستئصال، أم الموت البادئ فيه العذاب ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾[٣].

أم كعذاب بعد البرزخ وهم صالوا النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا

(١) سورة النجم، الآية: ١١.
(٢) سورة الهمزة، الآيتان: ٦، ٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1].

ولكن ﴿أَخِّرْنَآ﴾ قد تلمح إلى بادرة العذاب يوم الموت، أو العذاب الذي يستأصل الظالمين، فهو - إذاً - الزاوية الاولى من ثالوث العذاب، الذي يهدد الظالمين قبل يوم الموت ويوم الدين ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولمّا يغشاهم العذاب ويهلكهم - ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ في عذابنا المستأصل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ غير بعيد، ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ الصارخة في فطرنا وعقولنا، ثم على ضوءها ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فإذا هم بالجواب الحاسم القاصم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ . . .﴾ وقد يشبهه ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] مهما اختلف الموقفان في الإفراد هنا والجمع هناك وفي غير ذلك مما هناك.

وقد تعني ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كل هذه الأيام، يوم الرجعة ويوم الموت بعذاب استئصال وسواه، ويوم القيامة، حيث تتحملها الآية، مهما اختلفت في الأصالة المعنية وسواها.

والواو هنا يعطف إلى محذوف معروف كالذي في الفاطر ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم . . .﴾[3]: فهنا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم . . .﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ كما هناك ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ . . .﴾ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، والذي في «المؤمنون»: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا . . .﴾ فهنا وهناك ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ . . .﴾ ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم . . .﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ . . .﴾، والذي في السجدة جواباً عن ﴿. . . رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ١٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ . . .﴾[١] ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ . . .﴾[٢].

وهنا ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ كأنحس وأتعس ما كانوا يتقولون: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾[٣] أقسمتم ما لكم من زوال من هذه الحياة إلى حياة اخرى، وانما هو موت الفوت.

أو ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ في القوة والمال والحال على أية حال، فليس العذاب المهدد به بالذي يزيلنا: ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾[٤] فقد جاءكم ما أقسمتم من عذاب الاستئصال.

وقد تلمح ﴿ٱلنَّاسِ﴾ باطلاقه، كـ ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ في تحتّم ذلك المستقبل، إنه العذاب الآتي للكلّ، الجامع المكافح لكافة القوات البشرية، فعلّه يوم قيام القائم من آل محمد ﷺ فإنه عذاب على الظالمين، ورحمة للصالحين.

فـ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هم كل الأمم الرسالية، وكما تلمح له ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾، وذلك العذاب هو الأدنى حيث يأتيهم يوم الدنيا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[٥] وطبعاً لمن له أن يرجع.

فلأن الإيمان عند رؤية البأس ليس هو حق الإيمان، لا يقبل من هؤلاء الظالمين قولهم ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ . . .﴾ بل ليس هنا إلا رد بتنديد ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ وانتقال إلى حياة أخرى، أم زوال عن

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٤.
(٣) سورة النحل، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الهمزة، الآية: ٣.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٢١.

قوة الحياة وشوكتها، فكيف ترونكم اليوم؟ زلتم أمّا زلتم، ولقد تقولتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة ماثلة أمامكم:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾:

طغاة هم - بطبيعة الحال - يسكنون مساكن الذين ظلموا أنفسهم حيث يتوارثون سكنات الطغيان وثكناته، فليس مجرد السكون في مساكن الظالمين ظلماً، فقد يكون عدلاً كما الدولة الاسلامية تسترد مساكن الظالمين إلى أصحابها المظلومين، أم تسكنها الشعب المستضعفين لأنها مجهولة المالكين.

﴿وَسَكَنتُمْ... وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ حيث خرّت عليهم السقف من فوقهم ودمّروا عن بكرتهم، ﴿تَّبَيَّنَ لَكُمْ﴾ إذ أشهدناكم مساكنهم بساكنيها، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لهؤلاء من الغابرين[1].

ويا لهذه الأمثال المتجددة عبر الأجيال والقرون من عبر حيث تتجدد في طول الحياة، فكم من طغاة سكنوا مساكن آخرين، بعدما هلكوا، وأحياناً على أيديهم أنفسهم، ثم هم أولاء يتجبرون ويطغون ولا يبالون أو يتذكرون، سائرين سيرة الهالكين، دون أن تهز آثار الغابرين ضمائرهم، وتوقظ أعينهم وتصوّر لهم مصائرهم في مسايرهم:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ الكافر الغادر المائر كما اسطاعوا، مكراً على الله ورسالاته ورسله وتشريعاته، لكن ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فالله لا يمكر مهما

(١) الواو هنا حالية تعني ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ...﴾ [إبراهيم: ٤٤] حال أنكم سكنتم وتبين لكم.

مكروه، حيث المكر كله ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[١] فحتى ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢] ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾[٣].

فليمكروا ما تزول منه الجبال أم اكبر منه وأنكى، فـ ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾.

أترى ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ و﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ تعنيان فاعلية المكر كله، انها لله وعند الله؟ نقول ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يستطيع الماكرون أن يمكروا إلا باذنه تكويناً مختاراً دون تشريع، ألّا يمنعهم من مكرهم، ويأذن لمكرهم بعدما اختاروه بمقدماته الاختيارية، ثم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ عندية الحيطة العلمية وفي القدرة، فلا يغلب أو يمكر بمكرهم عجزاً عن مكافحة، وإنما امتحان الامتهان تخييراً دون تسيير.

ثم ﴿مَكْرُهُمْ﴾ تعم إضافة المصدر إلى فاعله: ما يمكرون - أو مفعوله: ما يمكر الله بهم جزاءً مكرهم: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[٤] فمكرهم فاعلياً ومفعولياً هو عند الله في حيطة علمية وفي القدرة والحكمة غير المحدودة المحلقة على كل شيء بكل شيء، واللام في ﴿لِتَزُولَ﴾ للغاية وهي المعنية هنا من مكرهم كأكثر ما قد يتصور من فاعلية المكر، ولا سيما في مكر الإشراك بالله مصورين له كأنه الحق من ربهم ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾[٥] هنا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٤٢.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.
(٥) سورة مريم، الآيتان: ٩٠، ٩١.

فاعلية إلهية من عظم هذه الدعوة الفاتكة، وهناك لمكرهم فاعليته إلهية وسواها وكلها عند الله وبإذن الله.

وترى من هم أولاء الذين مكروا مكرهم وإن كان مكرهم..؟ إنهم كل حماقى الطغيان طول التاريخ الرسالي، من كل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم واخلافهم الذين سكنوا في مساكنهم، قبل الرسول وزمنه ثم من بعده إلى يوم الذين، فالمكر هو المكر والله هو الله ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ فمهما كان المكر له فاعليته الخارقة للعادة، المزمجرة المدمرة، فهو «عند الله» دون أن يغلب عليه فيمكره، حيث الممكور إنما يمكر لضعف في العلم والقدرة والخبرة، والله خبير بما يصنعون، وقدير على ما يفعلون، وما الله بغافل عما يعملون.

وقد تشير ﴿لِتَزُولَ﴾ إلى محاولات ماكرة تؤثر هكذا تأثيرات هائلة كما السحر وأضرابه، ولكنها ليست إلّا بعلم الله ونفاذ قدرته ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1].

ولأن الجبال هي أصلب شيء وأثقله وأبعد شيء عن تصور الحراك والزوال في متناول العرف العام، لذلك يمثل هنا بالجبال، مثالاً لأقوى قوة قد تزول بمكرهم.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ فليس لتزول منه شيء من ساحة الرب المتعال[2]، لا يتفلت منه عن علمه شيء، ولا يتلفت إليه منه شيء، فهم لا يضرون الله شيئاً.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾:

قد يحسب الحاسبون الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) فـ «إن شرطية وصلية مهما تعارك فيها المفسرون والأدباء، فلا يستقيم لها إلا هذا المعنى.

الآخرة هم غافلون، إن الله مخلف وعده رسله، في نصرهم والإنتصار لهم، لما يرون من تغلب الباطل وتألب الحق: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[1] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2].

ولكن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في علمه وقدرته وحكمته، فكيف يخلف وعده رسله، وهو ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من الظالمين مهما طال الزمن وتطاولت المحن فـ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

وإخلاف وعد الرسل قد يكون من مخلّفات الغفلة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أم دون غفلة لجهالة أم عجز أم ظلم وخيانة، وايّ من هذه وتلك لا توجد في ساحة الربوبية ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾.

فما لذلك المكر الذي تزول به الجبال من مجال على أية حال، تعويقاً لتحقيق وعد الله، أم إخلافاً أم أي خلاف، فليس الله ليدع الظالم يفلت، والماكر يلفت، مهما طال يومه ولن يطول، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: وترى كيف ينتقم الله من الظالمين ولا يضارونه شيئاً، وليس الانتقام على أية حال إلا تشفياً لقلب المنتقم الجريح، وليس لله قلب ولا يجرح بأي جارح؟

إن انتقامه ليس لنفسه تشفياً أم سواه، وإنما للمظلومين المحطومين، فهو - إذاً - ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من الظالمين للمظلومين.

ونرى العزة قبل انتقام هنا وفي آياتها الأخرى الثلاث[3] مما يفرّع انتقامه تعالى على عزته، وقضية عزته عدله ورحمته على علمه وقدرته، دون

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١-١٧٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٣) ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤، والمائدة: ٩٥] ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٧].